

التأهيل الجغرافي في الميزان

مفرح جدا قيام بعض اقسام الجغرافيا بتوثيق للنتاج الجغرافي لفترة زمنية ، وقيام بعض الاكاديميين بتسليط الضوء على جغرافيين معينين وتأثير مساهمهم العلمي ونتائجهم الفكري . بارك الله في الجهود المبذولة في هذا المسعى . تشكل هذه المبادرات محطات للباحثين المعنيين بتأثير هوية الجغرافيا ومدرستها الفكرية في العراق .

سبق لي ان طرحت على المرحوم ، استاذنا الجليل صالح فليح الهيتي و الدكتور صبري فارس تكليف طالب دكتوراه بالكتابة عن منهجية الدراسات الحضرية المعتمدة في الرسائل الجامعية الصادرة عن جامعة بغداد ، عسى ان يخرج الباحث بنموذج للتركيب الداخلي للمدينة العراقية او ما شابه ذلك .

على الرغم من اهمية ما كتب ، واشير اليه آفا ، يبقى السؤال : ما هي هوية الجغرافيا في العراق ؟ وعلى الرغم من اتساع مساحة المدارس الفكرية التي نهل منها جغرافيو الجيل الاول (الولايات المتحدة الامريكية ، المملكة المتحدة ، فرنسا ، المانيا ، الاتحاد السوفيتي ، مصر) ، وعملوا جاهدين في استحداث جمعية جغرافية و عقدوا اول مؤتمر علمي جغرافي عراقي عام (1969) ، ولكن هل تمكن الجيل الذي تلاهم من هضم هذه المدارس ليشكل ارضية تنبت فيها مدرسة جغرافية عراقية ؟

اما الاجيال التي تلت فقد انشغلت (حسب اعتقادي وان شاء الله اكون مخطئا)) بالاستنساخ والتقليد دون اضافات نوعية ، او حتى التجميع في مسار واضح يوصل الى تشكيل مدرسة مميزة . لم تكن هناك رؤية مشتركة ، فالافكار والنشاطات فردية ، اصطنعت العقبات الكثيرة ذفي طريق تقدمها وتراكم نتائجها ، لاسباب شخصية و غير شخصية . ((الخلافاً بين جغرافيو كليتي الاداب والتربية ، الخلافاً بين شخوص معينة في القسم نفسه ، مؤشرات مخيبة للامال والطموحات)) . لم تكن الخلافاً السياسية وحدها المسؤولة عن هذا التشرذم والتشتت ، بل ، ومع شديد الاسف النزعات الدفينة : الطائفية و القومية والاجتماعية ، ورائها بشكل عميق ومؤسف جدا .

ازداد الامر سوءاً باستحداث الجامعات الاقليمية في المحافظات ، التي تحكمت فيها (بدرجات متباينة) العلاقات الاجتماعية ، وافتقد البعض منها ابسط الاعراف والتقاليد الجامعية التليدة . فبعض من تعين فيها لم يعش سابقا في جامعات رصينة ليكتسب السياقات و الضوابط الاصولية . يضاف الى ذلك الجهل بلغة اجنبية تفتح الاعين على تجارب الاخرين . اما طلبتها الذين اكملوا الدراسة فيها (اولية وعليا) ، فالبعض منهم يعد مشكلة بحد ذاته (عندما يكلف بمسؤولية فيها) . لهذا تعمقت مشكلة تحديد الهوية العلمية وتعقدت ، للجغرافيا و لبعض العلوم الاخرى ، الانسانية على وجه التحديد وذلك لنقص في التأهيل العلمي – المهني .

السؤال الصعب ، الذي يتطلب جرأة في الطرح و المعالجة ، وصبرا على ردود الافعال ، و عمق في التحليل وتجرد من الذات وما يشوبها من علائق لا علمية : كيف نشق هوية من حالة هلامية متعددة الاطراف والالون ؟ هل نحن مؤهلون للقيام بذلك ؟ و لماذا نتعب انفسنا ونجهدنا لنتحرى سمات هويتنا الفكرية ؟ من نكون (من حيث التكوين الفكري – الجغرافي)؟ وما يربطنا بغيرنا من الجغرافيين ؟ وعند العمل مع الاخرين من مختصي العلوم الاخرى ، ما هو دورنا بينهم ؟ لعل الاسئلة الثلاث الاخيرة (الشخصية) هي الهدف من كتابة هذه الارهاصات وعقد حلقات نقاشية لاستجلاء حقيقتها ، وليس المقصود ، نبش امورا اكل الدهر عليها وشرب . ساحاول الاجابة عن الاسئلة الثلاث الاخيرة ، تاركا الاسئلة الاخرى لغيري ممن تاخذه الحمية لدراسة الفكر الجغرافي العراقي وتاريخه القريب.

مصادر تأهيلي جغرافيا

اطرح مصادر تاهيلي جغرافيا كنموذج لمقارنته مع من اكمل دراسته الثانوية والجامعية الاولية والعليا في المدينة نفسها . تخرجت من قسم الجغرافيا ، كلية الاداب – جامعة بغداد عام 1970 . كنا نقدم تقاريراً لمادة او اثنين سنويا حسب موضوعات الدراسة ، ومن التقارير التي ما زلت اتذكر عنواناتها وقدمتها لاساتذتي حينها : (الجبايش : دراسة في الجغرافيا البشرية) ، (نهر الاردن واهميته السياسية) ، (قناة بنما واهميتها التجارية) ، (جغرافية ليبيا الاقليمية) . وكان معنا طلبة من الجزائر ، واليمن و سوريا ، وفلسطين . ومن العراق ، طلبة من شماله : سنجار و السليمانية و بامتداد الى الجنوب ، (ديالى ، النجف ، الحلة ، الديوانية ، الكوت) وصولا الى القرنة . وفي كل عام كانت هناك سفرتين علميتين على الاقل ، اخرها سفرة الى البصرة وام قصر والفاو . حضرنا جلسات المؤتمر الجغرافي العراقي الاول ونحن طلبة السنة الثالثة ، و كذلك حضور مناقشات طلبة الماجستير (الوجبة الاولى) . وكنا لا نغادر القسم الا بعد الانتهاء من الواجبات المطلوبة ، نقضي معظم الوقت بين المرسم و مكتبة الكلية . وكان هذا التنوع والاحتكاك اليومي مصدرا لتبلور شخصياتنا وافكارنا وسلوكياتنا ، اضافة الى تطور استيعابنا للجغرافيا نظريا وعمليا .

قبلت في جامعة نيوكاسل ابون تايين لآخذ كورس ماجستير مكثف في الجغرافيا التطبيقية (التخطيط الحضري والاقليمي) ، ومن هناك توضحت لي صورة الجغرافيا وعلاقتها بالعلوم الاخرى ، التخطيط والاقتصاد على وجه التحديد . وقد استهواني دور الجغرافيين في رسم السياسات المكانية - الاجتماعية على وجه التحديد . وقد كتبت رسالة عن (تقييم سياسة السيطرة على تلوث الهواء في منطقة تيسسايد) . وكان القسم مرتبط مهنيا بمركز لدراسات التنمية الحضرية والاقليمية CURDS الذي كان نشطا جدا في استضافة اساتذة من جامعات بريطانية ومن امريكا وفرنسا ، فكانت محاضراته (الخارجية) نوعية فعلا ومتنوعة .

كان نظام المقررات التعليمي معمولا فيه في جامعة البصرة ، وبعض الموضوعات تدرس باللغة الانكليزية . وكانت السياقات الجامعية متبعة فيها بشكل جيد جدا : وضع خطة بحثية سنوية ، لثلاث سنوات ، تناقش خطة القسم سنويا في مؤتمر يحضره رئيس الجامعة . وكان نظام استضافة اساتذة زائرين لكل فصل دراسي معمولا به ، اضافة الى سفرات الطلبة العلمية ، منها سفرة الى شمال العراق . وكانت الصلة بين مركز دراسات الخليج العربي والجغرافيا متينة ، وكذلك مع قسم التربة في كلية الزراعة . وعلى الرغم من المشاكل الشخصية بين رئيسي قسمي الجغرافيا ((الله يرحمهما)) (علي شلش – امريكا ، و علي عبد الكريم – روسيا) الا ان اجتماعات القسمين (آداب وتربية) كانت مشتركة مع سمنرات و كذلك التدريسات ومختلف النشاطات العلمية وكانه قسم علمي واحد في كليتين .

في الدكتوراه كتبت عن تقييم سياسة تحسين المساكن القديمة في ويلز ، جامعة ويلز في ابرستوث . فبعد الكورس المكثف في الماجستير تفرغت لاتعمق في نوع اخر من انواع السياسات الاجتماعية-المكانية في الدكتوراه . تعلمت ان البحث العلمي يعني ان تحفر بئرا بآبرة كما يقولون ، وان تحتاج ما تقرأ وما تكتب ، وان تتعلم تقنيات التحليل المختلفة لتختار منها ما يناسب موضوع دراستك . في الماجستير درست الجغرافيا بمنهجها التطبيقي ، وفي الدكتوراه تعلمت كيف اكتب بحثا .

يبقى سؤال قائما وحائرا وحاضرا دوما ، ماذا عن اولئك الذي تعلموا على يد اساتذة لم ينهلوا الا من مصدر واحد ، واعتادوا تدريس الملازم والملخصات والنقل المباشر من الانترنت ؟ ولا اقصد احراج احد ، ولا التباهي بما اكتسبته من تنوع مصادر التاهيل ، بل علينا ان نقف جميعا امام المرأة و نصارح انفسنا ،

هل نحن اهل للشهادة الاكاديمية التي نحملها ؟ واللقب العلمي الذي نتبجح به ؟ وكيف علينا ان نعيد تأهيل انفسنا مهنيا ان كنا نريد حقا مجارات العالم الاخر ونحترم ذاتنا ؟ ولا يغير الله ما يقوم حتى يغيروا ما بانفسهم.

الوشيجة الجغرافية

كورس الجغرافيا التطبيقية ، و بحث الدكتوراه علموني ان الجغرافيا لا تستغني عن العلوم الاخرى ، وان عليها ان تنهل منها ، وفي الوقت نفسه ان تضيف لها نتائج تحليل البعد المكاني للظاهرة المشتركة قيد الدرس . وبما ان الجغرافيا علم حدودي ، على تماس مع معظم ان لم يكن جميع العلوم ، وان ما تدرسه العلوم على اختلافها موجود في المكان ، ولكل الظواهر الطبيعية والبشرية تباينات مكانية ، لا تركز عليها العلوم الاخرى ، عدا الجغرافيا ، لذا فالجغرافية مكملة للعلوم الاخرى وليست بديلا عنها . وان التقدم لا يحدث الا بعد اعتماد R&D البحث والتطوير منهجا في الحياة وعلى مختلف الاصعدة و المجالات . لذا فان الجغرافية في دراستها للمكان من حيث الخصائص والسمات و التباينات (المكانية) و اتجاهات التغيير (الزمنية) ، تعد اساسا (الارض التي تستند عليها) العلوم ، وهي تكملها بتسليط الضوء على البعد المكاني للظواهر التي تدرسها .

فمخرجات العلوم الاخرى (النظريات و العمليات على وجه الخصوص) ذات الصلة هي مدخلات للدراسة الجغرافية عمليا ، تعينها في تحديد مشكلة الدراسة ، واختيار متغيراتها ، والعمليات المشكلة للظاهرة قيد الدرس و المؤثرة عليها ، وبالمحصلة النهائية تفسير اسباب تباينها مكانيا . فبيئة المكان (طبيعية وبشرية) هي مركزية في الدراسات الجغرافية ، وهي متفاعلة مع بعضها البعض ، ومكملة لبعضها البعض ، فتسليط الضوء على احد جوانبها لا يعطي البحث سمة الكمال و الشمولية . وان الانسياق وراء التقنيات ونتائجها دون الاستناد على اساس نظري مكاني ، والاكتفاء بمخرجات العلم الاخر ذي الصلة تفقد البحث الصلة بجذوره الجغرافية . بهذه الحالة ، لا يعد البحث من صلب العلم الاخر ونتاجاته ، ولا جغرافيا ، بل ممارسة تقنية لا غير .

تجذير البحوث والدراسات الجغرافية

يؤشر الواقع الراهن للدراسات الجغرافية في العراق نقصا واضحا في التاهيل العلمي - المهني ، في زمن انفتحت فيه افاقا واسعة امام الجغرافيين ليخدموا بلدهم بما اكتسبوه من معرفة و خبرة بحثية . وعملية اصلاح هذا الخلل ليست بالامر الهين ، خاصة مع سيادة العلاقات الشخصية و الاعراف العشائرية و الطائفية والقومية التي حيدت القوانين والضوابط العلمية والاكاديمية بشكل جعلتها شبه مشلولة . ويكون الحال اكثر صعوبة مع من يعتقد ان نيله الشهادة الاكاديمية يعفيه من اكتساب خبرة ومعرفة (والتي هو يفقدها اصلا) جديدة . انه يكتفي بنوط الشجاعة (الشهادة الاكاديمية) وما يحمله له من امتيازات ، ويؤهله لمناصب ومسئوليات كانت بعيدة المنال . انه لا يريد كشف جهله واميته العلمية التي غطاها بعباءة الشهادة الاكاديمية واللقب (العلمي) .

منذ مطلع الالفية الثالثة ، اتجهت بعض الدول لاعادة النظر في نظمها التعليمية و الاستعداد للتعليم بنظام جديد يسرته تقنيات الحاسوب والمعلوماتية . فانتشرت وسائل التعلم الافتراضية و لمختلف التخصصات العلمية والمهنية . وبرزت مواقع علمية على شبكة الانترنت ، رسمية وشبه رسمية و حتى شخصية و منتديات

تخصصية . سبق ذلك استحداث الجامعات المفتوحة ونظم الدراسة عن بعد ، وغيرها من برامج التعلم المتاحة لمن يرغب ولم يسعفه الوقت للانخراط بالمؤسسات التعليمية التقليدية .

وجائت جائحة كورونا لتجبر الجميع على اتباع اسلوب التعلم عن بعد بحكم الخشية من الاختلاط و انتشار الوباء . وهذه فرصة ذهبية لاعادة النظر في نظامنا التعليمي . ما اقترحه هنا هو استثمار الطرف لتوجيه عملية التعليم وجهة تخدم البلد وتحافظ على مستوى تعليم جيد فيه . ولا يتحقق الاصلاح والتقدم ما لم يتم تحجيم هيمنة العلاقات الشخصية و التأثيرات الاجتماعية على مجمل عملية التقييم العلمي وبكامل مفاصلها و مجالاتها . المقترح ان تسير عملية ترميم الصدع بمسارين متوازيين ، يكملان بعضهما البعض .

المسار الاول يعتمد على توثيق المعايير والاسس وتعزيزها و متابعة تطبيقها بشكل يحقق الهدف . ومن المعايير والاسس والضوابط التي يفترض اعادة النظر فيها هي :-

- 1- سياقات القبول في الدراسات العليا ، في جامعات العالم المتقدم وضمن استمارة التقديم للقبول في الدراسات العليا ، ومن شروط القبول كتابة مابين 200-400 كلمة لوصف مشروع البحث الذي يزمع المتقدم انجازه خلال دراسته في الجامعة . مع شديد الاسف عندنا ، كمل طالب الدكتوراه كورس السنة التحضيرية ولم يحدد بعد تخصصه ولا موضوع بحث الدكتوراه .
- 2- سياقات الترقية العلمية ، وما يتعلق بها من شروط النشر ومستوى الابحاث المقدمة للترقية وعائديتها العلمية .
- 3- نشر ثقافة البحث العلمي و تعميقها ومتابعة ما يكتبه الطلبة . ويفضل ان يكون ذلك من الدراسة الثانوية ، وفي الجامعة أن يكتب الطلبة تقارير و ابحاثا في كل سنة لمادة او مادتين على الاقل .
- 4- متابعة جادة ل(سمنرات) الاقسام العلمية ، للتدريسيين و طلبة الدراسات العليا .
- 5- وضع خطة بحثية (ثلاث سنوات) لكل قسم علمي ، ويتم الاعلان عنها و توثيقها في اللجنة العلمية للقسم وفي سجلات المساعد العلمي للجامعة ، يحدد فيها الاطار العام لعنوانات الرسائل والاطاريح ، اضافة الى ابحاث الملاك التدريسي والبحثي . يعاد النظر فيها سنويا لمتابعة التنفيذ و اضافة المستجدات .
- 6- صياغة معايير دقيقة تحدد التخصص العام ، وتؤشر التخصص الدقيق ، للابحاث و الرسائل والاطاريح الجامعية .
- 7- اعتماد الدراسة الميدانية لكل مادة جغرافية (عدا الاقليميات) .
- 8- استحداث مجلة \ منتدى على موقع المعهد الافتراضي او القسم ينشر فيها التدريسيون والطلبة كل ما يتعلق بالاختصاص حصرا .
- 9- مناقشة وبعث اسس تحديد الاختصاص الدقيق للتدريسي ، في الاشراف على طلبة الدراسات العليا والتدريس في الدراسات العليا ، وفي المناقشات .
- 10- تكليف حملة شهادة الدكتوراه بالتهيئة لتدريس موضوعات جديدة تضاف الى المنهج (كمادة اختيارية) و تقديم ما يعزز تمكنهم منها .
- 11- تمييز التدريسيون الذين يشتركون في مجالس ومشاريع بحثية متعددة التخصصات ، و مطالبتهم بتقديم سمنر عن ما انجزوه خلال مشاركتهم هذه . تتولى عملية التمييز والتكريم الكلية و \ الجامعة .

- 12- تشجيع التدريسيين لتشكيل مجاميع بحثية متعددة التخصصات لدراسة ظاهرة او مشكلة يعاني اقليم الجامعة الوظيفي . وفي حال ديمومة النشاط تستحدث وحدة بحثية تخصصية .
- 13- تشجيع التدريسيين للانخراط في كورسات اون لاين ذات صلة بالتخصص او بما يقوموا بتدريسه او البحث فيه ، او تعلم لغة اجنبية .

المسار الثاني ، يعتمد الانترنت كليا و بالتعاون ما بين الاقسام المتناظرة . المقترح ان يستحدث معهد افتراضي للدراسات الجغرافية ، يضم اقسام الجغرافيا في الجامعة (بعض الجامعات فيها اكثر من قسم جغرافية واحد) و الجامعات القريبة مكانيا (ضمن المحافظة او المحافظات المتجاورة) . يكون التدريس فيه بالصيغة الاتية :-

أ- 30-50% من المواد الدراسية تدرس في القسم نفسه ، تلك التي تتطلب عملا ميدانيا او مختبريا ،
ب- 50-70% من المواد تدرس عن طريق الانترنت مشتركة On Line . للتوضيح ، مادة جغرافية المدن في اقسام المعهد ، قد يكون فيها اربع مختصين بالمادة نفسها . تتوزع مفردات المادة حسب ما كتبه في الرسائل والاطاريح والابحاث (تركيب داخلي ، اساس اقتصادي ، خدمات ،) . اي يشتركون في تدريس المادة كل حسب ما تعمق في معرفته و تحليل جوانبه و معطياته . بهذه الصيغة سيأخذ الطلبة صورة موسعة و جيدة عن جغرافية المدن (بدلا من الملزمة التي لا تغني ولا تشبع من جوع) .

ت- يجتمع اعضاء المعهد الافتراضي (جميع تدريسيي اقسام الجغرافيا) شهريا لمناقشة الايجابيات والمشاكل . و ايضا مناقشة عنوانات الموضوعات التي سيكتب عنها (التدريسيون و طلبة الدراسات العليا) و خططها البحثية لتعزيز رصانتها والحفاظ على هوية الجغرافيا .

ث- الامتحانات مشتركة ، ويتم تصحيح الدفاتر الامتحانية من قبل قسم اخر غير القسم الذي ينتمي اليه الطلبة .

ج- يقدم التدريسي ثلاث نماذج من الاسئلة الى لجنة الامتحانات المركزية (في المعهد) ، شرط ان لا تكون هناك اسئلة مكررة ، تقوم اللجنة المركزية باختيار النموذج الذي يمتحن به الطلبة .

ح- المعهد افتراضي هدفه التنسيق وتعاون الاقسام المتناظرة لرفع المستوى العلمي للتدريسيين اولا و للطلبة ثانيا . وليس من مهام المعهد منح شهادة اكااديمية ، بل الاقسام هي من تقوم بذلك طبقا للقانون والتعليمات .

خ- الموقع الالكتروني للمعهد على الشبكة الدولية يوفر للجميع سبل التعلم و التعليم و تبادل الخبرة والمعرفة . ادناه نموذج لمثل هذه المواقع .



ملاحظة: الدخول لمنسوبي الجامعات المشتركة يكون من خلال صفحة قواعد المعلومات على موقع مكتبة الجامعة ومنها سيتم تحويلهم تلقائياً

الدخول مسموح لمنسوبي الجامعات المشتركة فقط.

قواعد معلومات دار المنظومة هي أصح قواعد معلومات علمية عربية على المستوى الدولي. وهي مدفوعة الترخيم غير مجانية. وهي موجهة للجامعات والهيئات العلمية، وليس هناك اشتراكاً فردية.

يجب أن تكون أحد منسوبي الجامعات أو الهيئات المشتركة حتى تتمكن من الدخول إلى القواعد والبحث وتحميل الأبحاث .

للتواصل: info@mandumah.com

وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون

(التوبة ، 105)

أ.د. مضر خليل عمر